المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية
المؤتمر السنوى الخامس عشر
قضايا الطفولة ومستقبل مصر

الأطفال مجهولى النسب بين الاستبعاد والاندماج الاجتماعى

إعداد
د/ كامل كمال
أستاذ مساعد
المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

مارس
٢٠١٣

الأطفال مجهولى النسب بين الاستبعاد والاندماج الاجتماعى

د .كامل كمال *

مقدمة في موضوع الدراسة

يجسد واقع حياة الأطفال مجهولي النسب مفهوم الاستبعاد القسري ، بفعل عوامل ثقافية تستهجن الممارسات الجنسية خارج إطار الزواج الشرعي ، إذ تبيح التقاليد إصدار حكم الإعدام على المرأة المنتهكة لقواعد العرف دون انتظار لأحكام القضاء درءا للفضيحة. ومن هذا المنطلق، ينتاب الأم العازبة صراع بين غريزتي البقاء والأمومة. ويحسم الصراع لصالح غريزة البقاء ، وتقرر أن تحافظ على الوجود البيولوجي للطفل مقابل تهميش وجودة الاجتماعى . إذ يحرم الطفل من الانتساب لأب يصونه من الضياع أو التشرد والانتماء لأسرة وعائلة يفتخر بها ، وجماعة قرابية تدعمه نفسياً واجتماعياً، فيحظى بوضع اجتماعي متدني ، في إطار نسق ثقافي يعلى من المكانة الموروثة المستمدة من الأصل والنسب، وتلاحقه النظرات القاسية التى تحمل في كثير من الأحيان الاحتقار والدونية لهؤلاء الأطفال باعتبارهم ثمرة علاقات جنسية غير شرعية. وأمام حالة التهميش والإقصاء التى يتعرض لها الطفل منذ بداية تكوينه جنيناً في رحم الأم وعبر سنوات العمر المختلفة ، ينسحب هذا الطفل من المشاركة في المجتمع كرد فعل لذلك . وفي هذه الحالة يكون الانسحاب إرادياً بالفعل.

تأسيساً على ما سبق ، يظهر بجلاء أن هذه الشريحة من الأطفال في أشد الحاجة للاهتمام والرعاية، حتى لا يتعاظم لديهم الإحساس بالتهميش والإقصاء. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة للجهود التى تبذل لإدماج هؤلاء الأطفال في بنية المجتمع؛ ومنها تشجيع الأسر على احتضان هؤلاء الأطفال – الأسر البديلة – ؛ وحرص الدولة والمنظمات غير الحكومية على إنشاء المؤسسات الإيوائية. وفي كثير من الأحيان، تشبع المؤسسات الإيوائية والأسر البديلة الاحتياجات البيولوجية للطفل بشكل جيد ، وتجد صعوبة بالغة في التعامل مع الاحتياجات النفسية والاجتماعية له ، لاسيما وأن هناك احتياجات لا يمكن إشباعها ومنها الحاجة للانتساب إلى أب ، والانتماء لعائلة ، وما يصاحب ذلك من الفخر والشعور بالأمن والطمأنينة .

وبشيء من الإيجاز، يمكن تصور الأطفال مجهولى النسب على طرفي متصل بين الاستبعاد بكل مظاهره والاندماج بأنماطه وآلياته المختلفة ، وموقع الطفل على المتصل مرهون بنجاح عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسر البديلة أو المؤسسة الإيوائية ، وبالسمات الشخصية

* أستاذ مساعد ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

للطفل ، وبالسياق الاجتماعي العام في المجتمع الذي يجب أن يتضمن اتجاهات ايجابية نحوهم، وإزالة جميع مظاهر التمييز. وإذا لم يتم دمجهم بشكل صحيح في المجتمع ، فإنهم ينتقمون من واقعهم ومجتمعهم بصور شتى أدناها العزلة وعدم التفاعل، وأعلاها الجريمة بأنماطها المختلفة . وتحاول الورقة الراهنة الإجابة على تساؤل رئيس مؤداه ما مظاهر الاستبعاد التي يتعرض له الطفل مجهول النسب ؟، وما التداعيات السلبية المصاحبة لاستبعادهم من المجتمع ؟، وما آليات دمج هؤلاء الأطفال في المجتمع ؟.

أولاً : الإجراءات المنهجية

مفاهيم الدراسة

١ – الأطفال مجهولو النسب

تتباين التسميات حول الأطفال الذين يعرفون على أنهم مجهولى النسب فقد يطلق عليهم الأطفال "اللقطاء"، وجاءت التسمية لما يلتقط من الأرض ، وهو طفل حديث الولادة تركه أهله خوفاً من الفقر أو فراراً من تهمه الزنا ، لا يعرف نسبه ولا أصله ، مطروح أمام المساجد أو في الأماكن العامة[١] .

وقد يطلق على هذه الفئة الأطفال غير الشرعيين ، الذين يكون أحد الوالدين غير معروف وغالباً ما تكون الأم معروفة والأب مجهولاً ، ويكون الطفل ثمرة علاقة خارج إطار الزواج مما يجعل إمكانية وجود النسب غير واردة .

ويمكن تعريف الأطفال مجهولي النسب على أنهم الذين يولدون وهم مجهولو الوالدين ويدخل في هذا التعريف الأطفال مجهولو النسب نتيجة الحروب والكوارث الطبيعية أو نتيجة الاعتداءات الجنسية داخل الأسرة –أطفال زنا المحارم– أو خارجها، وكذلك الأطفال الذين يولدون عن طريق علاقة غير شرعية [٢].

٢–الاستبعاد الاجتماعى Social exclusion

يشير أصل المفهوم للحرمان والتهميش ، وللعمليات التى مُنعت من خلالها الناس بشكل منظم من الوصول للحقوق والموارد والفرص التي تتوافر عادة لأفراد المجتمع الذي يقيمون فيه ، فهو يستخدم لتحليل السياسات ولوصف العمليات التى يتم من خلالها استبعاد الناس من المجتمع ، واستخدم هذا المفهوم لوصف طائفة واسعة من القضايا الاجتماعية تتضمن أوضاع النساء المهمشات ، الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة ، الناس بلا مأوى، الأقليات العرقية ، الشباب ، ضحايا الاتجار بالبشر ، العمال الرحَّل ..إلخ ، وهو كمفهوم معقد ومن الصعب الاتفاق على تعريف مشترك حوله[٣].

والاتجاه السائد أن يعرف الاستبعاد الاجتماعى فيما يتعلق بالتعليم والعمل، إذا يعرف الشباب المستبعدين اجتماعياً في بعض الوقت إذا كانوا خارج الساحات المنظمة للدراسة والعمل ، ولديهم احتمالات للاستبعاد من العمل أو الدراسة في المستقبل. وفي ظل اقتصاد السوق هناك اتجاه يعرف الاستبعاد من خلال الاعتماد على الرعاية الاجتماعية ضمن السياق الاجتماعى والاقتصادي، ويعرف المستبعدين على أنهم الأفراد الذين يعتمدون على خدمات الرعاية الاجتماعية لدعم الدخل والسكن وما إلى ذلك .

وهناك اتجاه يعتمد في تعريف الاستبعاد على السياسات العامة للدولة" العملية التى يتم من خلالها استبعاد الأفراد أو الجماعات كلياً أو جزئياً من المشاركة في المجتمع الذى يعيشون فيه" أو عدم القدرة على المشاركة الفعالة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية " أو " فشل أو عدم القدرة على المشاركة في الأنشطة الاجتماعية أو السياسية"[٤].

نستخلص من الاتجاهات والتعريفات المتعددة عدد من السمات الأساسية.

– العلاقات :– طبيعة العلاقات بين الجماعات الاجتماعية في المجتمع.

– الديناميكية :– العمليات التراكمية (الظروف والخبرات) في الماضى التى تشكل الخبرات والظروف الحالية وبدورها تشكل الظروف والخبرات في المستقبل.

– النسبية :– يعرف ويقاس الاستبعاد من حيث المعايير المجتمعية التى تسود في مكان ووقت معين .

– تعدد الأبعاد : تتعدد أبعاد الاستبعاد بين اقتصادية وسياسية ومدنية وثقافية وجغرافية.

– السياسات المترتبة على عدم تفعيل القرارات ، واتخاذ قرارات تستبعد بدورها أفراد من المجتمع[٥].

٣– **الاندماج الاجتماعى** Social inclusion

وهو عملية إدخال جزء في الكل ، أى أن تنصهر مجموعة صغيرة في مجموعة أكبر لتكوين مجموعة واحدة ، ويعبر عن الاندماج بالتفاعل بين أعضاء المجموعة ، ويسهم هذا التفاعل في الشعور بالانتماء للمجموعة ومبادئها . وينطوى مفهوم الاندماج في جوهره على بعد اجتماعى وآخر أخلاقى نابع من حقوق الإنسان ، والذى تنادى بعدم التميز أو العزلة ، وتحقيق فرص المساواة والمشاركة التامة في المجتمع ، بهدف انتقال الأفراد والجماعات من حالة المواجهة

والصراع لحالة العيش معاً[٦] ، كما يعبر الاندماج الاجتماعي عن صورة من صور القدرة على الوصول للحقوق السياسية والقانونية اللازمة لجعل هذه الحقوق واقعاً حياً . ويتضمن مفهوم الاندماج الاجتماعى مفاهيم أخرى مثل التمكين الاقتصادي . التأهيل الاجتماعى ، التكيف الاجتماعى ، الفعالية الاجتماعية [٧].

أهداف الدراسة

١ – الوقوف على مظاهر الاستبعاد التى يتعرض لها الطفل مجهول النسب .

٢ – رصد التداعيات السلبية للاستبعاد الاجتماعى على الأطفال مجهولى النسب.

٣ – التعرف على الآليات المختلفة لإدماج الأطفال مجهولى النسب في المجتمع .

نوع الدراسة ومنهجها

تعد الدراسة دراسة وصفية تحليلية ، اعتمدت على منهج دراسة الحالة ، عبر مستويين؛ ركز الأول على مؤسسة رعاية الأيتام ببنى سويف باعتبارها وحدة الدراسة ، واتخذ المستوى الثانى من الطفل مجهول النسب والأخصائيين الاجتماعيين المسئولين عن رعاية هذه الفئة من الأطفال وحده للدراسة .

أدوات الدراسة

(أ) مجموعة المناقشة البؤرية

استخدم الباحث مجموعة المناقشة البؤرية مع الأخصائين الاجتماعيين بالمؤسسة، كأداة للحصول على بيانات كيفية ، وشارك في الجلسة النقاشية ستة أخصائيين اجتماعيين بالإضافة لمدير المؤسسة والمشرف ، وكانت أهم الموضوعات المطروحة للحوار ، مظاهر الاستبعاد التى يتعرض لها الأطفال مجهولو النسب ، المشكلات السلوكية للأبناء ، تصورات الطفل عن ذاته ، الصعوبات التى تواجههم أثناء التعامل مع هذه الفئة ، الآليات المستخدمة من قبل الأخصائيين والمؤسسية لدمج هؤلاء الأطفال في المؤسسة والمجتمع ، مقترحات من واقع الخبرة العملية لتقديم رعاية أفضل لهذه الشريحة من الأطفال .

(ب) المقابلات الفردية

أجرى الباحث مقابلات مع بعض المسئولين عن رعاية هذه الفئة من الأطفال ومنهم مدير جمعية رعاية المؤسسات ، مدير مؤسسة رعاية البنين ، مدير إدارة الأسرة والطفولة . كما أجرى الباحث عشر مقابلات مع الأطفال بالمؤسسة ، وروعى أن تتنوع المقابلات لتضم طفلين في المرحلة الابتدائية وثلاثة أطفال في المرحلة الإعدادية ، و"خمسة" أطفال في المرحلة الثانوية .

وركزت المقابلة على البيانات الأساسية للطفل ، علاقات الطفل داخل المؤسسة ، علاقات الطفل خارج المؤسسة ، نظرة الطفل لذاته ، المشاكل التى يعانى منها الطفل في المؤسسة والمدرسة ، طموحات الطفل .

مجتمع الدراسة

طبقت الدراسة الميدانية بمؤسسة البنين لرعاية الأيتام ببنى سويف ، والتى تخضع للأشراف المباشر مع الحضانة الإيوائية للأطفال دون سن السادسة ، ومؤسسة البنات ، لجمعية رعاية المؤسسات والتى تتولى من خلال مجلس الإدارة ومدير الجمعية تقديم الدعم المادى والفنى لكل مؤسسة ، وللجمعية مصادر دخل ثابتة – الوقف الخيرى ، مشروعات الجمعية كالمغسلة، والمحلات التجارية ، الإعانة السنوية التى تقدمها وزارة الشئون الاجتماعية – كما أن هناك مصادر متغيرة للدخل تتمثل في التبرعات المادية والعينة .

وفيما يتعلق بالمؤسسة موضوع الدراسة التى يقيم بها ٤٠ طفلاً ، منهم ثلاثة أطفال حالات خاصة ، وطفلان يتيما الأبوين ، وأربعة أطفال يتامى الأب والأم متزوجة ، وأربعة أطفال يتامى الأب والأم غير متزوجة ، وخمسة أطفال تفكك أسرى ، هذا إلى جانب ٢٢ طفلاً مجهولي النسب ، ويتضمن الهيكل التنظيمى للمؤسسة مديراً وعدد سبعة أخصائيين اجتماعيين، ومشرف ، وأربعة عمال ، والمؤسسة بها عدد (١٠) عنابر لإقامة الأبناء ، حيث يقيم كل ٤ أطفال في عنبر خاص بهم ، هذا بالإضافة إلى مكتبة ، ملعب كرة قدم ، وحديقة ، وصالة لتناول الطعام ، ومطبخ .

جدول (١)

توزيع الأطفال مجهولو النسب بالمؤسسة طبقاً لمراحل التعليم

المرحلة التعليمية	عدد
المرحلة الابتدائية	٤
المرحلة الإعدادية	٧
المرحلة الثانوية	٤
تكوين مهنى	٢
المرحلة الجامعية	٣
حاصل على دبلوم	٢
الجملة	**٢٢**

ثانياً : نتائج الدراسة

(١) مظاهر الاستبعاد

يبدأ الاستبعاد الاجتماعى للطفل منذ لحظة اكتشاف الأم للحمل ، وتهرب الأب البيولوجى من مسئوليات الأبوة وإنكاره الصلة بالأم ، والتى تبحث عن حل لتلك المعضلة ، ومن الحلول المطروحة التخلص من الجنين ، وتحاول بشتى الطرق ، وقد تنجح المحاولات أو تفشل ، ويأتى هذا الطفل نظراً لفشل محاولاتها ، وقد تترك المحاولات غير الناجحة آثاراً وخيمة على الطفل تصاحبه طوال حياته ، وكيف تتم عملية الولادة ؟ وفي أى ظروف صحية واجتماعية يظهر هذا الوليد الجديد للدنيا ؟. مما يعرضه لخطر الموت أو التشويه إذا ظل على قيد الحياة. وفي هذا السياق تجدر الإشارة لوجود طفل يعانى من إعاقة بيده اليمنى ضمن حالات الدراسة الميدانية ، وتحاول الأم أن تتخلص من طفلها بعد إنجابه فتتركه في مكان تتخيره ثم تفر منه ومن الآثار المترتبة على وجوده. وقد تبين من فحص الملفات الخاصة بالأطفال الموجودين بالمؤسسة أن منهم من وجد بشارع عمومي بمحافظة بني سويف ، أو بجوار أحد المساجد ، الطريق الدائري ، أو بجوار صندوق للقمامة. وهنا يظهر حرص الأم على وضع الطفل في مكان عام يتردد عليه الناس ، حتى يسهل التقاطه والعناية به ومن ثم المحافظة على حياته .

يستقبل الطفل المولود في إطار الزواج الرسمي بفرحة وتضاء له الشموع ويحاط بالرعاية في حضن أمه وكنف أبيه ، وينمو في جو من الحب والقبول ، بينما يستقبل الطفل مجهول النسب بوجوم وحزن ورفض ، واستبعاده من البيئة الإنسانية – الأسرة – التى من المفترض أن تستقبله في رغبة وتقدير وتشبع حاجاته المعنوية والبيولوجية ، فهو يستبعد من الأسرة التى تعد الفضاء الأول والأمثل لتنظيم العلاقات والحقوق والواجبات بين الوالدين وأطفالهم في إطار من صلات الدم الوثيقة والعاطفة المتبادلة ، وبالاستبعاد من المناخ الأسرى يفتقد الطفل لإشباع احتياجاته المعنوية ، وهى احتياجات ذات أهمية كبيرة لكى ينشأ الطفل سوياً ، ولا تقتصر علاقة الطفل بالأسرة على فترة طفولته وإنما تستمر العلاقة الوثيقة بين الفرد وباقى أعضاء الأسرة والجماعة القرابية في مختلف مراحل الحياة ، وهنا يقول أحد الأبناء "الأب والأم سابونى وأنا مليش حد".

يشعر الطفل داخل مؤسسات الرعاية الاجتماعية بالعديد من مظاهر الاستبعاد والتهميش فمنذ لحظة وجوده بالحضانة الإيوائية ، واستبعاده من الأم المسئولة عن عملية الرضاعة ، لتتولى رعايته والإشراف عليه أم أخرى ، ويشعر بالحرمان عند مشاهدة الآباء والأمهات تصطحب أطفالهن للحضانة والعودة للمنزل– حيث تضم الحضانة بجانب الأطفال مجهولو النسب عدداً من الأطفال أبناء الحى – ، ويظل هو موجود داخل المؤسسة ، وهنا يطرح الأطفال عدداً من الأسئلة على الأخصائيات الاجتماعيات والمشرفات ، فين بابا وماما ؟ وغيرها من

الأسئلة التى تعبر عن إحساسه بحالة التهميش والاستبعاد ، ويمكن القول أن الطفل في هذه المرحلة المهمة من حياته تشبع احتياجاته البيولوجية بواسطة هيئة الإشراف بالمؤسسة، لكن يفتقد لإشباع احتياجاته المعنوية .

يظل الطفل داخل الحضانة الإيوائية حتى الالتحاق بالمدرسة الابتدائية ، ويبدأ في الانتقال التدريجى لدخول مؤسسة رعاية الأيتام مع الأطفال في المرحلة الإعدادية والثانوية. وفي الصف الرابع الابتدائى، يعيش الطفل داخل مؤسسة الكبار ، وهى لحظات يشعر فيها بحالة من الغربة والتهميش ، إذ ينتقل لمكان جديد وآباء وأمهات جدد وأخوة وأخوات آخرين. وقد يتعرض الطفل الصغير للاستبعاد من جانب الأطفال الأكبر سناً داخل المؤسسة ، وقد لاحظ الباحث ذلك أثناء مشاهدة التليفزيون ، أو ممارسة الألعاب الرياضية بفناء المؤسسة. وقد يشعر بالاستبعاد عند مشاهدته أقارب وأمهات الأطفال الأيتام يترددون على المؤسسة لزيارتهم، واصطحابهم أثناء الأجازات الدراسية ، فيما يظل هو موجودا بالمؤسسة.

يتعلم الطفل أثناء الحضانة والمرحلة الابتدائية داخل أسوار المؤسسة، وفي المرحلة الإعدادية، يلتحق بالمدرسة الموجودة بالحى. وقد يتعرض للاستبعاد من جانب بعض المدرسين ، لاسيما وأن اهتمام عدد كبير من الأطفال مجهولى النسب بالتعليم اهتمام محدود. فقد يتغيب بعضهم عن المدرسة ويحدث هذا بصفة خاصة في المرحلة الثانوية. فتنظر إدارة المدرسة والمدرسين والزملاء لهؤلاء الأطفال على أنهم أبناء مؤسسة. بل وهناك صورة ذهنية سلبية حول المؤسسة واعتبارها مكاناً يضم الأحداث المنحرفين.

يلتحق كل أطفال المؤسسة في المرحلة الإعدادية بمدرسة واحدة ، اثنى عشرة طفلاً منهم بمدرسة الشعب الإعدادية. وإذا حدثت مشكلة مع أحد الأطفال من أبناء المؤسسة وتلميذ آخر بالمدرسة، يتجمع الأطفال لمساندة زميلهم، فالملاحظ أن انتماءهم لبعض قوى رغم ما قد يحدث بينهم من خلافات ، وعند حدوث هذه المشكلات يتعرضون للأذى النفسى من قبل أولياء الأمور وإدارة المدرسة لكونهم مقيمين في المؤسسة.

وقد تحدث خلافات بين أحد أطفال المؤسسة وأطفال الحى، أثناء الذهاب للدروس الخصوصية أو العودة من المدرسة. وقتها يتجمع الأطفال لمساعدة زميلهم، وهنا يقول الأخصائى "ذات مرة حدثت مشكلة أثناء عودتهم من الدرس، وقاموا بضرب أحد زملاءهم، وجاءت والدة الطفل وأخذت تسب الأطفال وتصفهم بصفات بشعة، يرتكبون هذه المشكلات وغيرها من المشكلات العادية التى يتسبب فيها الأطفال بصفة عامة، ولكن عندما تأتى منهم تحديدا لا يتسامح معهم أحد".

النعوت التي تلحق بالأطفال مجهولى النسب – أولاد حرام، أولاد زنا، لقطاء، وغيرها من الكلمات التي يصعب على الأذن سماعها– تضعهم ضمن فئة من البشر يجب تفاديهم والتعامل

معهم بالريبة ، وهى كلها مظاهر تعبر عن رفض المجتمع وفرض العقاب الاجتماعى على الطفل مجهول النسب. فعند خروجه للمدرسة أو الشارع أو مع جماعة الرفاق، يواجه نظرات مختلفة تتراوح بين الشفقة والعطف، الرفض والاشمئزاز، وتنهي عند إطلاق الألفاظ والنعوت القبيحة.

بعد أن يقضى الأطفال فترة الطفولة والمراهقة داخل المؤسسة الإيوائية، وبمجرد الحصول على المؤهل الدراسى، يطلب منهم ترك المؤسسة والاعتماد على أنفسهم في جميع شئون حياتهم، والعيش والاندماج في المجتمع الخارجى. هذه المرحلة أكثر المراحل حساسية في حياتهم، ولكنهم لم يستعدوا لها. فقد كان هؤلاء الأطفال لسنوات معتمدين على المؤسسة تتكفل بجميع متطلباتهم. وفي هذا السياق، يقول أحد الأخصائيين الاجتماعيين بالمؤسسة أن من أكثر الأسئلة المطروحة: "يا أستاذ لما نخلص تعليم هنروح فين، ولما نطلع من المؤسسة هنروح فين؟"، فاصطدامهم بالواقع الذي لم يتعرفوا عليه بالقدر الكافي، وشعور الواحد منهم بأنه ليس لديه أسرة ومحروم من والديه، يخلق لديه شعورا بعدم الاكتراث والتقدير لأحد، مما يؤدى للعديد من الاضطرابات السلوكية الناتجة عن الشعور بالضياع الاجتماعي(٨).

وفي الأسر البديلة يواجه بعض الأطفال منهم الاستبعاد من الأطفال الطبيعيين داخل الأسرة؛ فهم ينظرون لهم باعتبارهم منافسين لهم في حب ورعاية الوالدين. ويشعر الطفل منهم بالاستبعاد عندما يجد أن اسمه الثلاثي مختلف عن أسماء الأطفال داخل الأسرة. ويشتد الإهمال والاستبعاد وسوء المعاملة داخل الأسرة البديلة فقيرة الدخل منخفضة الوعي. فالطفل مجهول النسب بالنسبة لهذه الأسرة مصدر من مصادر الدخل لها، حيث تحصل على مقابل من وزارة الشئون الاجتماعية نظير رعايته. ويتعرض الطفل أحيانًا لبعض مظاهر الاستبعاد من جانب الأقارب بتفضيلهم الابن الطبيعي ونبذ الطفل الدخيل. وفي الأسر التي لا يوجد بها أطفال قد يثير الأقارب اعتراضاً على وجود الطفل، ويرفضون وجوده خوفًا من مشاركة الطفل لهم في الميراث. وقد يبدى الجيران عدم تقبلهم للطفل، ويمنعون أبنائهم من اللعب معه؛ من منطلق عدم معرفتهم لنسبه. كذلك يرفض كثير من الناس أن يعمل معهم طفل مجهول ولا يثقون في سلوكه.. الخ. كذلك يرفض معظم أفراد المجتمع الدخول في علاقات نسب مع شاب مجهول، وغيرها من مظاهر الاستبعاد التي يواجهها الطفل طوال حياته وفي تعاملاته الاجتماعية بصفة عامة(٩).

٢- صور الاندماج

يبدأ السواد الأعظم من الأطفال مجهولى النسب مشوار حياتهم بقسم البوليس لتحرير محضر بواقعة الالتقاط، وهى خطوة غاية في الأهمية لإثبات وجوده البيولوجي ومن ثم تكون هذه بداية الجهود الرامية لإدماجه في جسم المجتمع الذى سبق ولفظه، إذ يسجل الطفل في السجلات

الرسمية للدولة، وتحرر له شهادة ميلاد من السجل المدنى. وللتدليل على الأهمية البالغة لتلك الإجراءات يقول مسئول الأسرة والطفولة: "هناك حالات لأفراد عثروا على أطفال وتولوا تربيتهم من تلقاء أنفسهم دون الرجوع لوزارة الشئون الاجتماعية أو قسم الشرطة، وبعد مرور سنوات على وجود الطفل مع الأسرة يكتشف أنه يصعب عليه إلحاقه بالمدرسة لعدم وجود شهادة ميلاد، وعند محاولة استخراج شهادة ميلاد يجدون صعوبة بالغة" وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن شهادات ميلاد الأطفال مجهولى النسب لا تختلف عن شهادات ميلاد الأطفال الشرعيين، وكان معظم الأطفال مجهولى النسب قبل عام ١٩٦٥ لا يقيدون بالسجل المدني، ويحملون ورقة صفراء اللون تتضمن بيانات عن مكان العثور عليهم والسن التقريبي واسم واحد فقط، وتترك خانة الأم والأب فارغة ويكتب بها عبارة مجهول، ويكتب في مكان الميلاد أسماء حدائق أو دور سينما معروفة ..إلخ. ولكن بعد صدور قانون الأحوال الشخصية المعدل لسنة ١٩٦٥ الذي نص في بنوده على أن يقيد هؤلاء الأبناء عند العثور عليهم بأسماء وهمية للأم والأب، بحيث تظهر شهادة الميلاد في صورة عادية لا تختلف عن شهادة ميلاد أي طفل(١٠).

وبعد الانتهاء من الإجراءات القانونية، يسلم الطفل بطريقة رسمية وبصحبته ملف يحتوى مع المحضر المحرر من قسم البوليس، وقرار النيابة لإدارة الرعاية البديلة بوزارة الصحة التي تتولى بدورها استخراج شهادة ميلاد للطفل ورعايته خلال فترة الحضانة. وتنتقل مسئوليته بعد الفطام لوزارة الشئون الاجتماعية، ويلحق الطفل بالحضانة الإيوائية التابعة لجمعية رعاية المؤسسات. هذه الحضانة كان قد بدأ العمل فيها عام ١٩٩٧، وكان عدد الأطفال لا يقل عن ٢٣ طفلاً حتى عام ٢٠٠٦، ولكن العدد أخذ يتناقص تدريجيًا، إذ يقيم بالحضانة الآن سبعة أطفال وطفلة ضالة عثر عليها وعمرها ثلاث سنوات. وتفسر مسئولة الحضانة سبب تناقص عدد الأطفال إلى التوسع في نظام الأسرة البديلة(١١).

إن نظام الأسرة البديلة هو نظام من الرعاية يهدف لإدماج الطفل في المجتمع، وتهيئة بيئة منزلية بديلة للأطفال المستبعدين من قبل أبائهم البيولوجيين. وفيها يرعى الطفل من سن سنتين حتى ٢١ سنة، ويجوز الاستمرار في الرعاية إلى ما بعد ذلك. ويعتمد هذا النظام على مجموعة من الإجراءات، تبدأ بتقديم الأسرة الراغبة في رعاية طفل مجهول النسب طلب لمديرية الشئون الاجتماعية تعلن رغبتها في رعاية أحد الأطفال، وتشرح ظروفها الاقتصادية والاجتماعية. وتجرى زيارة ميدانية للأسرة من قبل كبير الأخصائيين الاجتماعيين بإدارة الأسرة والطفولة ، ويتم كتابة تقرير عن صلاحية الأسرة البديلة لرعاية الطفل. ثم يعرض طلب الأسرة وتقرير الزيارة الميدانية على لجنة مشكلة من ممثل لوزارة الداخلية، والأزهر الشريف، ووكيل وزارة التضامن الاجتماعي، ومدير المؤسسة. وفي حالة صلاحية الأسرة وبناءً على قرار اللجنة، يسلم الطفل

للأسرة البديلة، وتتم متابعة الأسرة بصفة دورية من خلال مكتب الأسرة والطفولة بالمديرية، وهو ما يسمى بالرعاية اللاحقة.

أكد المشاركون في المناقشة الجماعية على عدد من الإيجابيات لنظام الأسر البديلة باعتبارها من آليات الدمج المهمة للأبناء، ومن بين ما ذكر أن هذا النظام يحقق التكيف الاجتماعي للطفل بصورة أفضل من وجوده داخل المؤسسة الإيوائية، ويشعره بالأمن والاستقرار داخل الجو الأسرى، ويشبع الحاجات النفسية للطفل بصورة أفضل من المؤسسات، ويقى الطفل من الانحراف حيث الرعاية والتوجيه الأسرى. ولهذا النظام مردود إيجابى على الأسرة البديلة ذاتها، إذ أنه يشبع دافع الأمومة في الأسر التى حرمت من الإنجاب، ويزيد دخل بعض الأسر الفقيرة، ويضفي على أهل الأسرة شعورا بالراحة النفسية لفعل الخير.

وفي سياق الحديث عن الأسرة البديلة أشار الأخصائيون الاجتماعيون لعدد من السلبيات لهذا النظام، كان من أهمها عدم الدراسة الدقيقة للأسرة البديلة قبل تسليم الطفل، وعدم جدية المتابعة للأسرة من قبل الجهات المسئولة، وأن الطفل البديل قد يتسبب في وقوع مشكلات مع أبناء الأسرة، ومنها سوء معاملة بعض الأسر للطفل البديل، ورغبة بعض الأسر في الحصول على مقابل نظير تربية الطفل، وتركيز الأسرة البديلة على الطفل كمصدر للدخل وليس كإنسان له احتياجات نفسيه واجتماعية، وصعوبة تقديم الطفل البديل للأقارب والجيران، كما تفرق بعض الأسر بين أبناءها والطفل البديل في المعاملة، وتعدد حاجات الطفل، وعدم قدرة الأسر على الوفاء بها، كما تجد الأسرة صعوبة في دمج الطفل بين أبناءها.

تعد المؤسسات الإيوائية أحد آليات الدمج للأطفال في المجتمع، وهى دار مجهزة للإقامة الداخلية لإيواء الأطفال من الجنسين المحرمين من الرعاية الأسرية – من الأيتام، ومجهولى النسب – ترعى الأطفال من سن سنتين وحتى الثامنة عشر، حيث يقيم الأطفال مع المشرفين في عنابر كبيرة، وهم في مراحل عمرية متشابهة، ويتناولون طعامهم في مطاعم واسعة لكل أطفال المؤسسة، وتمثل المؤسسة أولى فضاءات التفاعل الاجتماعى للطفل ، إذ يقضى الطفل فترات طويلة داخل أسوار المؤسسة، وهى المسئولة عن غرس القيم والمعايير الاجتماعية في الأطفال تمهيداً لإدماجهم في المجتمع.

تحرص المؤسسة على أن يندمج الطفل مع المجتمع الخارجى منذ التحاقه بالحضانة الإيوائية، وتحقق ذلك بعدد من الإجراءات؛ منها ألا تقتصر الحضانة الإيوائية على الأطفال مجهولي النسب، بل تتيح الفرصة لقبول أبناء الحى، وهو ما يتيح الفرصة للطفل الايوائى الاحتكاك بعدد كبير من الأطفال أثناء ممارسة الأنشطة والألعاب داخل الحضانة. وينسحب هذا الإجراء على المدرسة الابتدائية الملحقة بالمؤسسة. ويسهم احتكاك الأطفال في مرحلتى الحضانة والطفولة المبكرة بعدد كبير من الأطفال في تحسين النمو اللغوى والتفاعل الاجتماعي.

يظل الطفل داخل الحضانة الإيوائية حتى بعد دخول المدرسة. وبداية من الصف الثالث الابتدائي، تتخذ إجراءات تمهيدية لإلحاق الطفل بمؤسسة البنين أو البنات، حيث يقضى الطفل يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع مع الأطفال الكبار بالمؤسسة. ويستمر هذا الإجراء لمدة عام، ثم يقيم الطفل بشكل دائم في المؤسسة مع الأطفال الكبار. ويسهم الانتقال التدريجي للطفل في تحقيق درجة أعلى من الاندماج، لاسيما وأنه داخل الحضانة يعتمد في كل أمور حياته الشخصية – في النظافة، والملبس، والمأكل ..إلخ – على مشرفة الحضانة. وعند الإقامة مع الكبار، تقع على كاهل الطفل مسئولية الاعتماد على نفسه إلى حد كبير. ويدخل في تفاعلات وعلاقات اجتماعية مع أطفال في مراحل عمرية مختلفة. ونظرًا للتغيرات الحادة على صعيد النواحي الشخصية والعلاقات الاجتماعية، يمثل الانتقال المفاجئ من العالم المألوف اضطرابات نفسية. من هذا المنطلق، تعنى إدارة المؤسسة بأن تتم عملية الانتقال التدريجي للأطفال لضمان درجة عالية من اندماجهم الاجتماعي داخل المؤسسة.

ويعد نظام الاستضافة للطفل مجهول النسب أحد صور الاندماج الاجتماعي مع المجتمع الخارجي، إذ يسمح هذا النظام لأحد الأسر أن تستضيف طفلا لبعض الوقت أثناء الإجازات الدراسية ، وتستمر الاستضافة مع الطفل منذ الحضانة إلى أن يصل لسن الرشد، وقد لا تنقطع علاقة الأسرة المستضيفة بالطفل – الذكور فقط – ويخضع هذا النظام لضوابط تبدأ بتقديم الأسرة لطلب تعلن فيه رغبتها عن استضافة طفل. وتشكل لجنة لفحص طلب الأسرة للتعرف على ظروفها الاجتماعية والاقتصادية، وتقرر صلاحية الأسرة لاستضافة الطفل من عدمه. ومن حق الطفل قبول أو رفض الاستضافة. وتقتصر الاستضافة على الطفل مجهول النسب فقط، ولا تسمح المؤسسة بالاستضافة للأيتام والإناث بعد سن السادسة.

كشفت اتجاهات النقاش حول الاستضافة في مجموعة المناقشة البؤرية أن لهذا النظام إيجابيات ، تتمثل في تعويض الدفء والحنان الأسرى المفتقد عند الطفل مجهول النسب، الاحتكاك بالمجتمع خارج المؤسسة الدعم المادي للطفل، حيث تتبرع الأسرة المستضيفة بمبلغ من المال بصورة منتظمة أو متقطعة يوضع في دفتر توفير للطفل. وعلاوة على الايجابيات هناك أثار سلبية تتمثل في: تدليل الأسرة المستضيفة للطفل يؤثر بالسلب على شخصيته وسلوكه داخل المؤسسة، كما أن الاستضافة أحد أسباب استبصار الطفل بحالته كونه مجهول النسب، ويعني تعدد الاستضافة تعدد الآباء والأمهات مما يشتت الطفل، ويؤثر انقطاع الاستضافة على الحالة النفسية للطفل، مما يجعله ناقما على المجتمع، إذ قد يتعلق الطفل بأحد الأسر ولظروف معينة تنقطع الاستضافة ويرفض الطفل الذهاب إلى أسرة أخرى.

ومن آليات الدمج تنفيذ أنشطة ثقافية واجتماعية ورياضية، بهدف الانفتاح على المجتمع الخارجي، وخلق عوالم أخرى للطفل خلاف العالم المغلق داخل المؤسسة. ومعظم الأنشطة لا

تقتصر ممارستها على أبناء المؤسسة فقط، إذ تسمح إدارة المؤسسة بانضمام أبناء الحي – بالاشتراك في المكتبة، والنادي الثقافي، والرحلات. وتتعاقد المؤسسة مع مدربين لتدريب الأطفال على ممارسة بعض الرياضات – الكاراتيه وكرة القدم والطائرة – لمدة ثلاثة أيام أسبوعيا. ولا يقتصر التدريب على أطفال المؤسسة، إذ يسمح للأبناء المتفوقين والموهوبين رياضيا من الأطفال بالخروج من المؤسسة والتدريب بصورة مكثفة تحت إشراف الكابتن المسئول عن تدريبهم داخل المؤسسة.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن أحد الأبناء في المرحلة الثانوية يتدرب مع نادي تليفونات بني سويف. بشيء من الإيجاز يمكن القول أن السماح للأطفال من أبناء الحي بالالتحاق بالحضانة والمدرسة الابتدائية التابعة للمؤسسة ، وبالمشاركة في الأنشطة سالفة الذكر، هي إجراءات من شأنها اعتبار أسوار المؤسسة أسوارًا وهمية مما يسمح للمجتمع بالدخول للمؤسسة والاحتكاك بالأطفال. فمن الصعوبة بمكان أن يخرج الأبناء في السن الصغير للاحتكاك بالمجتمع الخارجي.

يبدأ الأطفال الاحتكاك بالمجتمع خارج المؤسسة في المرحلة الإعدادية والثانوية. وتسمح الإدارة بخروج الأبناء في هذه المرحلة، والتردد على المدرسين لتحسين المستوى التعليمي– الدروس الخصوصية – بخلاف المرحلة الابتدائية يتعلم الطفل داخل المؤسسة وحتى الدروس الخصوصية. وقد يتردد على المؤسسة بعض المدرسين المتطوعين لمساعدة الأطفال، وفي حالة عدم وجود مدرسين يتولى الأخصائي الاجتماعي بالمؤسسة مساعدة الأبناء في تحصيل دروسهم. والطفل بداية من الإعدادية يبدأ في تكوين بعض الصداقات مع زملاء من خارج المؤسسة، وزملاء المدرسة، والدروس، وإن كانت علاقات الصداقة محدودة بالنسبة لعدد كبير من الأطفال. فالاندماج بين الطفل وزملاءه داخل المؤسسة أقوى من الاندماج في علاقات صداقة مع المجتمع الخارجي، وهنا يقول أحد الأخصائيين الاجتماعيين "الأطفال مجهولو النسب أكثر قربًا من بعضهم البعض". وتظهر علاقات الصداقة بالأطفال من خارج المؤسسة عند الاحتفال بأعياد الميلاد ، حيث يحضر الطفل وأصدقاؤه من المدرسة للاحتفال بعيد ميلاده، ويخرج الأطفال بصحبة الأخصائي الاجتماعي لمشاركة أصدقاءهم أعياد ميلادهم. ويشارك الطلاب في المرحلة الجامعية أصدقائهم في المناسبات الاجتماعية المختلفة. وفي هذا الإطار يقول الأخصائي الاجتماعي "أن هناك بعض الصداقات الضارة" ، ويشير إلى حالة طالب من أبناء المؤسسة في المرحلة الثانوية، إذ من خلال علاقات الصداقة غير السوية تعلم سلوكيات ضارة.

وينفذ الأخصائيون الاجتماعيون بعض الأنشطة مع أبناء المؤسسة فقط، ومنها إعداد دورات تدريبية على بعض جوانب التنمية البشرية، وندوات للتوعية والتثقيف، والإرشاد الديني لحث الأبناء على تقبل الحياة، وتفعيل جماعات النشاط داخل المؤسسة لخلق روح التطوع.

وتحرص هيئة الإشراف المتواجدة على الأطفال طوال اليوم، على أن يلتزم الأطفال بأداء الصلوات بانتظام داخل مسجد المؤسسة، لتنمية الوازع الديني وخلق حالة من الرضا الداخلي.

ويعد العمل خارج المؤسسة أحد آليات الدمج، إذ تسمح الإدارة للطلاب في المرحلة الثانوية وخاصة التعليم الفني بالعمل أثناء الإجازات وبعد انتهاء اليوم الدراسي. يعتمد توفير فرص العمل للأبناء بشكل أساسي على العلاقات الشخصية لأعضاء مجلس الإدارة والعاملين داخل المؤسسة. وفي بعض الأحيان، يأتي أصحاب الأعمال لطلب الأبناء للعمل. ويؤكد الأخصائي الاجتماعي أن الهدف الأساسي لعمل الأبناء الاحتكاك بالأفراد خارج الحدود الضيقة للمؤسسة، فالكسب المادي هدف ثانوي، لاسيما وأن المؤسسة توفر كل الاحتياجات المادية للأبناء. وكل ما يحصل عليه الطفل من مبالغ مالية جراء عمله، يوضع في الحساب الخاص به.

وتحرص إدارة المؤسسة على تمكين الطفل اقتصاديًا، بداية من الاهتمام بتعليم الأبناء إذ تستمر المؤسسة في دعم الأطفال وتشجيعهم على التعليم حتى المرحلة الجامعية، ومن يتعثر في التعليم يلتحق بالتكوين المهني. كل ذلك بغية أن يجد الطفل فرصة عمل جيدة بعد حصوله على المؤهل الدراسي. ومن آليات التمكين الاقتصادي أن لكل طفل داخل المؤسسة دفتر، وتختلف المبالغ المالية داخل كل دفتر وذلك حسب التبرعات، والكفالة، وعمل الطفل، وما يدخره من مصروفه اليومي ..الخ. ويستطع الطفل الحصول على ما في الحساب من أموال بعد الوصول لسن الرشد كبداية لمساعدته للاعتماد على نفسه في توفير مسكن.

ويجد الطفل مجهول النسب صعوبة بالغة في الاستقلال بحياته عقب حصوله على المؤهل الدراسي، لذا تسمح إدارة المؤسسة له بالإقامة بمقابل مادي رمزي – مائة جنيه شهريًا. وقد تستمر الإقامة لمدة عام أو أكثر، تمهيدًا لتوفير مسكن وتكوين أسرة. وتجدر الإشارة إلى أن ما يدفعه الشاب نظير الإقامة لا يدخل في حسابات المؤسسة، ولكن يوضع في حسابه الخاص. هذا الإجراء لتشجيعه على العمل وتحمل المسئولية ، فيظل عدد من الأبناء الذكور والإناث يرتبطون بالمؤسسة حتى بعد الزواج والإقامة خارج المؤسسة. إذ يتردد بعضهم أثناء الأعياد لقضاء اليوم مع أخوته داخل المؤسسة.

٣ -التداعيات السلبية للاستبعاد

يصاحب استبعاد الطفل وإقصاءه من كنف الأسرة افتقاده للمركز المتساوي مع كل طفل ولد في إطار علاقة زواج رسمية، وحرمانه من أبسط الحقوق الأساسية للإنسان وهى الانتساب لأب والانتماء لأسرة ، يتعلم في رحمها المعايير والقيم الاجتماعية المؤهلة للتفاعل الاجتماعي الايجابي مع أفراد المجتمع ، لاسيما وأن الأسرة كمؤسسة للتنشئة الاجتماعية تتضمن ميكانيزمات للثواب والعقاب والتحفيز والامتصاص النفسي والاجتماعي. وقد تبين من العمل الميداني آثاراً

سلبية على أطفال الحضانة الإيوائية. وترتبط بشكل مباشر بحالة الاستبعاد من الجو الأسرى ، من أهمها عيوب النطق وتأخر الكلام ، ضعف البنية الجسدية ، التبول اللاإرادي من جراء افتقاده للعطف والحنان وغياب دور الأم . ويبدى الطفل في الحضانة الخوف الشديد ، وبصفة خاصة عند الخروج للشارع ، وهنا تقول الأخصائية الاجتماعية: "الطفل في الحضانة يخاف جداً من الشارع ويمسك في يد المشرفة" ، إذ ينشأ في فضاء –المؤسسة – فقير في المثيرات والخبرات، وما يستتبعه من فرص محدودة للتفاعل الاجتماعي بين الطفل والآخرين ، وفرص محدودة للتعلم الاجتماعي والتكيف مع البيئة .

وتمثل المؤسسة الإيوائية أولى فضاءات التفاعل الاجتماعي عند الطفل مجهول النسب، لاسيما وأنه يقضى فترة الحضانة والتعليم في المرحلة الابتدائية داخل أسوارها. وتتمحور علاقاته وتفاعلاته الاجتماعية في هذه المرحلة الهامة من مراحل تكوينه النفسي والاجتماعي حول أقرانه بالمؤسسة والقائمين على رعايته. وتعد المؤسسة المسئول الأول عن غرس القيم والمعايير الاجتماعية ، وهى التي تساعد على تحقيق الهوية لديه من خلال الأنشطة والتفاعلات والتوجيه الاجتماعي والإرشاد النفسي من قبل الأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين. وبالرغم من كل ذلك تتشكل لدى معظمهم هوية مغلقة. فالمجتمع بالنسبة لهم المؤسسة فقط ، يفضلون العمل داخلها في المغسلة، فهناك "أطفال حساسة ترفض العمل خارج المؤسسة، يخافون من نظرة المجتمع". هناك مشكلات خاصة بالتعامل مع المجتمع الخارجي تتمثل في مدى قبول المجتمع لهم كأبناء مؤسسة .

وثمة ارتباط بين حالة التهميش والاستبعاد التي يعانى منها مجهولو النسب ومستواهم التعليمي[١٢]، فقد تبين من العمل الميداني أن المستوى التعليمي للطفل يكون بشكل أفضل في المرحلة الابتدائية مقارنة بالمرحلة الإعدادية والثانوية ، ويظهر ذلك في الانتظام في المدرسة، ومعرفة القراءة والكتابة ، وعدم التعثر أثناء سنوات المرحلة الابتدائية. ويبدأ تراجع المستوى التعليمي مع التحاق الطفل بالمدرسة الإعدادية. ويفسر ذلك بتشابك مشكلات مرحلة المراهقة مع المشكلات النفسية المرتبطة بحالة التهميش والاستبعاد وما يصاحبها من غياب الهدف ، وضعف الثقة بالنفس والشعور بالدونية ، وانخفاض تقدير الذات ، وانخفاض الدافعية للانجاز المتصلة بغياب التشجيع ، والتفكير المستمر في الهوية. علاوة على أن المدرسة الإعدادية تمثل بداية خروج الطفل للتعليم خارج المؤسسة ، فهي تشكل وسطا اجتماعيا جديدا مليئا بالضغوط النفسية والاجتماعية التي يتعرض لها الطفل من قبل الزملاء والمدرسين والتعامل معهم كأبناء مؤسسة .

وأمام الضغوط النفسية والاجتماعية التي يتعرض لها الأطفال مجهولو النسب ، يرفض بعضهم الذهاب للمدرسة بصورة منتظمة ، ويظهر ذلك بوضوح في المرحلة الثانوية ، وغالبيتهم مستمرون في التعليم بدون هدف أو طموح ، لذا نجد أن العدد الأكبر من أبناء المؤسسة يلتحقون

بالتعليم المتوسط. فقد تبين أن طفلا واحدا التحق بالتعليم الثانوي العام ، مقابل ثلاثة أطفال التحقوا بالتعليم الفني ، وطفلين تسربا من التعليم. وعلى الرغم من ذلك، هناك ثلاث حالات استطاعت التغلب على ما بداخلها من معوقات نفسية وتحدت الصعوبات المجتمعية والتحقت بالتعليم الجامعي.

إن شعور الطفل بأن الأسرة غير موجودة ، يخلق لديه شعوراً بعدم الاكتراث ، مما يؤدى للعديد من الاضطرابات السلوكية الناتجة عن الشعور بالضياع النفسي والاجتماعي، واصطدامه بالبيئة الاجتماعية – المؤسسة والمدرسة – لإثبات وجوده. وتظهر معالمها في التمرد على القواعد الموجودة بالمؤسسة. وقد يلجأ بعضهم للجريمة كالسرقة وتعاطي الممنوعات أو الانحرافات الأخلاقية للانتقام من الذات أحياناً ومن المجتمع ، في محاولة لإثبات الذات. وفي هذا السياق، أشار أحد الأخصائيين لحالة أحد الأبناء بالمؤسسة لم يستكمل تعليمه، ولم يستمر في العمل ، وكان دائم السرقة ، وافتقر لكل القيم ومعاني الحياة ، مما اضطر إدارة المؤسسة لتحويله لمجمع الدفاع الاجتماعي الخاص برعاية الأحداث المنحرفين. وبعد قضاء فترة العقوبة ، كان يتردد على المؤسسة ، ويقيم بالشارع بجوارها. كان دائم المشكلات للحد الذي جعل سكان الحي يشكلون صورة سلبية عن المؤسسة، ويقولون "المؤسسة تخرج مجرمين والناس بتيجى تتخانق معانا"، وهنا يقول أحد الأخصائيين "الأطفال بالمؤسسة لا يحبوا الالتزام أساساً" . ويبدى بعض الأطفال سلوكيات عدوانية ، وفي بعض الأحيان يوجه العدوان للذات: "ممكن الطفل يأذى نفسه ، ممكن يشوه إيده ". وقد حاول بعض الأطفال الانتحار أكثر من مرة: "أنا عايز أموت وأتمنى الموت". وقد يكون العدوان على الذات لفظي، بأن يسخر الطفل من نفسه ووضعه ، ويظهر ذلك في بعض العبارات: "وحياة أبوى اللى أنا ما شفتهوش"، "وحياة أمى اللى أنا ما عرفتهاش". وقد تظهر بعض حالات السرقة في سن الاعدادية والثانوية بغرض الانتقام من أحد الزملاء ، أو الغيرة ، أو إشباعا لرغبة داخلية . وهناك عدوان موجه للمجتمع ، إذ يرى الطفل أن المجتمع ظالم "أنا بكره شهر تلاتة علشان عيد الأم" ، ويشعر بأن الأخرين يكرهونه ويعبر عن ذلك بقوله "أنتم بتكرهونى ، الأستاذ فلان بيكرهنى".

يشعر الطفل مجهول النسب بالنقص ، وعدم الثقة بالنفس ، ويحمل نفسه ذنب ما هو فيه. وينعكس ذلك على الاهتمام المبالغ فيه بالمظهر الخارجي بطريقة ملفته للنظر ، وهنا تقول مديرية الجمعية "أن أحد الأبناء في المرحلة الجامعية يلبس حذاء مش أقل من ١٨٠ جنيه ، والقميص والبنطلون من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ جنيه". وفي السياق ذاته، يقول أحد الأخصائيين: "لما أخرج معاهم أنتظر لفترة طويلة لحين الانتهاء من اللبس والوقوف أمام المرايا، فالاهتمام بالملبس مهم جداً بالنسبة لهم ". ومن المشكلات السلوكية الملحوظة الكذب "خلق قصص وحكايات لكى يستدر عطف الآخرين". ويشير أحد الأخصائيين إلى اهتمام عدد منهم بالحصول على الأموال

من المتبرعين "معظمهم الفلوس حياتهم" "عدم الخجل من أن يقول أنا عايز". وقد يفسر الاهتمام الكبير بالحصول على الأموال إلى الشعور بعدم الأمن والطمأنينة، والنقود بالنسبة لهم السند الوحيد لتأمين المستقبل ، وتخفيف حدة الخوف من المستقبل .

يُكون عدد كبير من الأطفال مجهولى النسب صورة سلبية عن ذاته ، وأن الحياة لا قيمة لها ، وشغله الشاغل هو أن يعرف من هو الأب ؟ ومن الأم ؟ وأين هما ؟. يطرح هذه الأسئلة من لحظة الحضانة ويظل يرددها لذاته طوال مراحل حياته. وفي سياق البحث عن الهوية، تروى مديرة جمعية رعاية المؤسسات قصة طفل في المرحلة الإعدادية ذا بشرة سمراء ، ترك المؤسسة واستقل القطار المتجه لأسوان للبحث عن أهله ، اتخذ قرار السفر لمجرد سماعه أن أهله ربما يكونون من محافظة أسوان ، وبعد تغيب لمدة أسبوع باءت جهوده بالفشل وعاد للمؤسسة. يتبين من تلك الرواية الواقعية أن البحث عن الهوية هو الشغل الشاغل لهذه الفئة من الأطفال ، ولديهم استعداد للقيام بأي شيء في سبيل معرفة الهوية ، فهي الهاجس الرئيسي المتحكم في تفكيرهم وتصرفاتهم .

ويؤكد الأخصائيون الاجتماعيون في مجموعة المناقشة على أن الطفل مجهول النسب أكثر حساسية من الطفل اليتيم الموجود بالمؤسسة ، ولديه الإحساس بالدونية ، والرفض من المجتمع ، وتقدير الذات لديهم منخفض، وتتفق تلك الآراء مع إحدى الدراسات النفسية (١٣) حول هوية الذات لدى مجهول النسب التي توصلت إلى أن صورة الذات لديهم تحتويها المشاعر السلبية والاكتئاب والشعور بالدونية ، وانخفاض تقدير الذات ، فهذه الشريحة من الأطفال لم تجد أحدا يقدرها ، ووضعوا في مؤسسات إيوائية ، ويشعرون بأنهم أشخاص لا قيمة لهم. ويكون احترامهم لذاتهم ضعيفا جداً . وقد تشكلت هذه الصورة السلبية لشعورهم بالاستبعاد والإقصاء من أقرب الناس. ولم يحظوا على التقدير من أسرهم ، وتعاملات الناس معهم بعين الشفقة والرحمة وليس لشخصهم أو ذواتهم . والبعض يعاقبهم ويحملهم أخطاء آبائهم.

وقد تبين من العمل الميداني أن عددا قليلا من الأبناء لديهم تسليم ورضى بالأمر الواقع، والاتجاه إلى الله، ولديهم طموح من خلال التعليم. وتجدر الإشارة إلى أن هناك حالات من أبناء المؤسسة أنهت مراحل التعليم ، والتحقت بعمل ، واستطاعت أن تجد سكنا وتستقل بحياتها وكونت أسرة ، ويؤكد المسئولون بالمؤسسة أن حياتها مستقرة إلى حد كبير .

وبشكل عام يمكن القول أن استبعاد الأطفال مجهولى النسب وافتقادهم للرعاية والمساندة النفسية والاجتماعية بمثابة أرضية خصبة وملائمة لتطوير مشاعر التهميش والإقصاء . حيث لا توجد أسرة وما يصاحب ذلك من غياب مرجعيات ثقافية يستند عليها الطفل في اختياراته ، وهو ما يؤدى به إلى أحد أمرين إما الانسلاخ من المحيط الاجتماعي والإغراق في مشاعر اليأس والإحباط ، أو مواجهة المحيط الاجتماعي باعتباره محيطاً معادياً ويسلك سلوكيات مضادة

للمجتمع ، من واقع إثبات الذات والمراهنة على الوجود ولو بالفعل المناهض للقانون ، فهم من الفئات الأكثر عرضه لأخطار الانحراف والجنوح إذا لم يتم إدماجهم في المجتمع .

استخلاصات وتوصيات

في ضوء الأهداف والمنهج المستخدم توصلت الدراسة لعدد من النتائج أهمها : -

يستبعد الطفل مجهول النسب من البيئة الإنسانية – الأسرة – ويحرم من الانتماء لعائلة وجماعة قرابية تدعمه نفسياً واجتماعياً ، ويشعر داخل المؤسسات الإيوائية بالعديد من مظاهر الاستبعاد ، فبعد أن يرتبط بيولوجياً ووجدانيا بأحد الأمهات البديلات أثناء فترة الرضاعة يجبر على تركها للذهاب للحضانة الإيوائية تحت إشراف أم أخرى ، ويشعر بالحرمان عندما يشاهد الآباء والأمهات يصطحبون أطفالهم للحضانة ، ويحس بالغربة عندما ينتقل للعيش داخل مؤسسة الكبار ، وقد يتعرض للاستبعاد من جانب الأطفال الأكبر سناً داخل المؤسسة.

ومن مظاهر الاستبعاد والتهميش تعامل الزملاء والمدرسين وأفراد المجتمع معهم على أنهم أبناء مؤسسة، والنظرة الدونية لهم باعتبارهم فئة من البشر يجب تفاديهم والتعامل معهم بحذر ، وبعد أن يقضى الطفل فترة طويلة داخل المؤسسة وتصبح هي كل عالمه ، بمجرد حصوله على المؤهل الدراسي يستبعد من المؤسسة ، وقد يتعرض بعض الأطفال في الأسر البديلة للاستبعاد من جانب الأطفال الطبيعيين داخل الأسرة ، والأقارب، والجيران .

تقع على الدولة مسئولية إدماج الطفل مجهول النسب في المجتمع ، وتتعدد آليات الدمج بداية من اتخاذ الإجراءات القانونية، وتحرير شهادة ميلاد لإثبات وجوده البيولوجي ، وتسليم الطفل لإدارة الرعاية البديلة بوزارة الصحة، حتى انتهاء فترة الرضاعة. وبعدها تنتقل تبعية الطفل لوزارة الشئون الاجتماعية التي بدورها تصبح المسئول عن إعداد الطفل وتربيته وإدماجه في المجتمع بطريقة صحيحة ، وتنحصر نظم دمج الطفل مجهول النسب في أحد نظاميين أولهما نظام الأسر البديلة ، إذ يسلم الطفل لأحد الأسر تتولى رعايته تحت إشراف ومتابعة إدارة الأسرة والطفولة وهو ما يسمى بالرعاية اللاحقة ، ويتمثل النظام الثاني للدمج في رعاية الطفل داخل المؤسسات الإيوائية المخصصة لرعاية الأيتام وحالات التفكك الأسرى، وتعتمد تلك المؤسسات على آليات متعددة للدمج منها انفتاح المؤسسة على المجتمع الخارجي من خلال قبول أبناء الحي في الحضانة والمدرسة الابتدائية ، والموافقة على نظام الاستضافة، وممارسة الأنشطة الرياضية والثقافية بالتعاون مع أطفال من خارج المؤسسة ، وإتاحة الفرصة للأبناء للعمل أثناء الإجازات الدراسية. وعلى الرغم من الآليات المتعددة التي تستخدمها المؤسسات الإيوائية لإدماج

هؤلاء الأطفال في المجتمع ، أظهرت الدراسة أن نظام الأسر البديلة هو الأفضل للاندماج الاجتماعي.

يصاحب الاستبعاد للطفل مجهول النسب العديد من التداعيات السلبية ، بداية من افتقاده للمركز المتساوي مع كل طفل ولد في إطار علاقة زواج رسمية ، وتنشئته في إطار وسط اجتماعي – المؤسسة – فقير في المثيرات والخبرات، وفيه فرص محدودة للتفاعل الاجتماعي بين الطفل والآخرين. فتتشكل لدى معظمهم هوية مغلقة ، فالمجتمع بالنسبة لهم المؤسسة ، يفضلون العمل داخلها ، ويواجهون مشكلات خاصة في التعامل مع المجتمع الخارجي ، وتنعكس مشاعر الاستبعاد الداخلية للطفل على مستواه التعليمى ، والغالبية منهم يتراجع مستواهم التعليمي. ويعانى بعضهم العديد من الاضطرابات السلوكية كالسرقة والعدوان على الآخرين والذات . والشعور بالنقص وعدم الثقة بالنفس ، ويكون الطفل صورة سلبية عن ذاته.

وفي ضوء ما توصلت له الدراسة من نتائج يمكن صياغة عدد من التوصيات كالتالي:-

- وضع ضوابط صارمة في اختيار الأسر البديلة ، وإعداد دراسة دقيقة وواقعية للظروف الاجتماعية والاقتصادية للأسرة. ويفضل اختيار الأسر البديلة غير المنجبة لرعاية الطفل داخلها، والأسر التي ترغب في رعاية الطفل دون الحصول على مقابل مادي .
- ضم الطفل مجهول النسب للأسرة البديلة في وقت مبكر من حياتهم ، مما يسهم في تكيف الطفل بسرعة داخل الأسرة ، وينعكس ذلك بشكل ايجابي على النمو الجسمي والعقلي واللغوي والاجتماعي والانفعالي للطفل ، لاسيما وأن السنوات الأولى من عمره تشكل ملامح شخصيته .
- إعداد الأسر البديلة لاستقبال الطفل ، ووضع برامج إرشادية وتدريبية للتوعية بأساليب التربية الجيدة ، ومشكلات الأبناء وكيفية التعامل معها بشكل علمي. على أن تتم هذه التدريبات في لقاءات جماعية للأمهات البديلات ، ومن خلال المتابعة اللاحقة للأخصائي الاجتماعي للأسرة .
- الاهتمام بالمتابعة الدورية الدقيقة من الأخصائيين الاجتماعيين بإدارة الأسرة والطفولة للأسرة البديلة ، ويكون للمتابعة أهداف محددة منها التعرف على مدى تقدم الطفل في نواحي النمو المختلفة ، أسلوب معاملة الطفل داخل الأسرة ، الرد على تساؤلات الأسرة بشأن رعاية الطفل .
- يفضل أن تخصص مؤسسات مستقلة عن مؤسسات الأيتام وحالات التفكك الأسر لرعاية الأطفال مجهولي النسب ، لتخفيف حدة المعاناة النفسية للطفل وخاصة عند خروج

الأطفال الأيتام لزيارة أقاربهم أثناء الإجازات ، ويظل الطفل الايوائى مقيما داخل المؤسسة.

- وضع معايير وضوابط لقبول العاملين بمؤسسات الرعاية وخاصة المشرفين ، والعمل على سد العجز في أعدادهم حتى يتلاءم عدد الأطفال مع عدد المشرفين، بما يضمن قدرة المشرف على تحمل أعباء خدمة هؤلاء الأطفال ، وعقد دورات تدريبية وتأهيلية لهم بصورة منتظمة .
- الاختيار الجيد للأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين وفق ضوابط ومعايير علمية ، والعمل على صقل مهاراتهم بصورة دورية ، وتحسين أوضاعهم المادية، للحد من مشكلة دوران العمل بين الأخصائيين في المؤسسة ، مما يؤثر بالسلب على الأبناء .
- الاهتمام بالتمكين الاقتصادي للأبناء من خلال تعليمهم حرفا تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم في المستقبل ، وتوفير فرصة عمل لهم، ومسكنا وغيرها من الأمور التي تساعدهم على تكوين أسرة والاندماج في المجتمع بشكل جيد .

المـــراجـــع

١- دخينات خديجة ، وضعية الأطفال غير الشرعيين في المجتمع الجزائري ، دراسة ميدانية في مدينة باتنة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية ، جامعة الحاج لخضر الجزائر ، ٢٠١٢ ، ص ١٢.

٢ – مريم أحمد الداغستانى ، أحكام اللقيط في الإسلام مع دراسة ميدانية ، ص ١٩ .

3- Katrine Fangen, Social exclusion and inclusion of young immigrants: presentation of an analytical framework, Nordic Journal Youth Research, vol 18, NO1,2010,p135.

4 – Chris Horsell, Homeless and social exclusion; A Foucauldian perspective for social worker, Australian social work Journal, v. 59 ,N. 2, 2009, p 215.

5- Lynn c.Todman and others, Social exclusion indicators for the united states, Journal of individual psychology, volume 65, N.41, 2009, pp. 330, 331 .

٦- انظر :

- عماد فاروق محمد صالح ، مؤشرات تمكين المعوقين من الاندماج الاجتماعي ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة السلطان قابوس ، عمان ، ٢٠١١، ص٩ .

٧- وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والتكنولوجيا ، الإدماج والاندماج الرهانات والاستراتيجيات والمرجعيات ، الندوة العلمية الدولية ، تحرير ، عز الدين دخيل ، جامعة تونس ، ٢٠١١.، ص٣ . وعلى الموقع الإليكتروني:

- www.isajc.rnu.tn/sites/default/files/integration-ar2.pdf

٨- أنظر:

- ياسر يوسف إسماعيل، المشكلات السلوكية لدى الأطفال المحرومين من بيئتهم الأسرية، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩.

- إيمان محمد النبوى، دراسة في أهم المشكلات النفسية والاجتماعية لدى الأطفال مجهولى النسب في الأسر البديلة والمؤسسات الإيوائية، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس، ٢٠٠٨.

٩- أنظر:

- زياد على الجرجاوى، عبد الفتاح عبد الغنى، درجة تقبل اللقطاء في المجتمع الفلسطيني، دراسة سيكولوجية مقارنة، ٢٠١١.

١٠- علا مصطفي أنور، سيد عويس؛ وآخرون. تقويم مشروع الرعاية البديلة في الأسرة والمؤسسة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨٠.

١١- أنظر:

-حمدان بن عبيد العتبى، تجربة الأسر البديلة لرعاية الأحداث من الانحراف دراسة تشخيصية من وجهة نظر الأخصائيين الاجتماعيين، رسالة ماجستير عير منشورة، كلية الدراسات العليا، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠١٠.

١٢- أنظر:

- سعاد عبد الرحيم، مؤسسة معهد ليلة القدر الخيرية، دراسة حالة، وزارة التضامن الاجتماعي، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ٢٠١٠.

١٣- أنظر:

- ماجدة محمد زقوت، هوية الذات وعلاقتها بالتوكيدية والوحدة النفسية لدى مجهول النسب، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، عزة، ٢٠١١.

-إيمان محمد القماح، أثر الحرمان من الوالدين على البناء النفسي للطفل، رسالة ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٣.